مقاصد التشريع الإسلامي

محمد المنوني

من المعلوم أن التشريعات الإسلامية التي يزاولها المسلمون في أعمالهم اليومية، الدينية والدنيوية، في عباداتهم وفي معاملاتهم، كلها تهدف إلى غايات حميدة، ومقاصد معقولة، وتتبني على حكم سامية، وترمي إلى مصالح عائدة على العاملين بها بالنفع الكثير، والخير العميم، دينا ودنيا، معاشا ومعادا، وأن القرآن الكريم والحديث الشريف ليزخران بالكثير الطيب من الأمثلة لمقاصد التشريع كقوله تعالى بعد آية الوضوء: {**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم**} [1] وقال في الصيام: {**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**}[2] وفي الصلاة: { **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** [3] وقال في القبلة: {**فولوا وجوهكم شطره ليلا يكون للناس عليكم حجة**}[4] وفي الجهاد: {**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**}[5] وفي القصاص: { **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب** }[6] وفي التقرير على التوحيد: { **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**[7]}

وقد وضح معقولية هذه الشريعة الإسلامية الإمام الجليل ابن القيم في كلام نفيس لا يستغني عنه بحث كهذا، قال في كتابه إعلام الموقعين أثناء الكلام:

" فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون،

---

[1] المائدة الآية٦
[2] البقرة الآية ١٨٣
[3] العنكبوت الآية٤٥
[4] البقرة الآيات ١٤١-١٥٠
[5] الحج آية٣٩
[6] البقرة الآية ١٧٩
[7] الأعراف الآية ١٧٢

وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهي قرة العيون، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، فهي الحياة، والغذاء، والدواء والنور، والشفاء، والعصمة، وكل خير في الوجود، إنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها، ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوى العالم، وهي العصمة للناس وقوام العالم، وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزولا، فإذا أراد الله سبحانه خراب الدنيا وطي العالم رفع إليه ما بقي من رسومها، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم، وقطب الفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة ".[8]

هذا كلام ابن القيم الجوزية في شرح معقولية التشريع الإسلامي، وهو كاف في بابه، شاف في موضوعه، فلننقل الحديث بعده إلى سرد طائفة من القضايا التي قال فيها الإسلام كلمته، وحكم حكمه قبل نحو أربعة عشر قرنا، هذه القضايا التي كانت تعاليل كثير منها غير معروفة، مما أدى إلى الطعن فيها والطعن في الإسلام من جرائها، حتى جاء الطب الحديث باكتشافات تؤيد وجهة نظر الإسلام على طول الخط، وتصوب حكمه، وتدحض شبه الطاعنين، وتنسف مزاعم الضالين، فكان هذا مصداقا لقوله تعالى:

{سنريهم ءايتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}.[9]

أولا- حديث الذباب

وأول هذه القضايا حديث الذباب الذي أخرجه البخاري وأبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله عليه وسلم **(إذا وقع الذباب في شراب أحدكم –وفي لفظ في طعام أحدكم- فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء...)** هذا الحديث تعرض غير ما مر للطعن عليه حتى ارتاب في صحته بعض المتأخرين الذي ظن أنه مخالف للنواميس الطبية، ومعارض للقواعد الصحية، ثم تبين أخيرا خطأ الطاغين وضلال المعترضين، بما أثبتته تجارب الطب الحديث، فقد قررت أن هذه الحشرة –المعروف عنها أنها تأكل الجراثيم المولدة للأمراض- يوجد داخل جسمها أيضا مادة للشفاء، وهي جسيمات صغيرة مفترسة للجراثيم، وبهذا صار في الذباب مادتان متعاكستان مادة للشفاء، وأخرى للداء، وهذا هو ما ورد في عجز الحديث الشريف **(فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء)** وأما ما ورد في صدر هذا الحديث **(إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه)** فالغمس هو لأجل أن تدخل –للشراب أو الطعام- مفترسة الجراثيم التي يقرر الطب أن أثرا زهيدا منها يكفي لقتل جميع الجراثيم

---

[8] ابن القيم إعلام الموقعين جزء٣ ص٣
[9] فصلت آية ٥٣

المماثلة، وأن هذا الاكتشاف ليسجل معجزة كبرى للإسلام الذي عرف هذا السر منذ عصر النبوءة مع أن العين لا ترى شيئا من ذلك، ولم يكن لعلم الجراثيم أثر، ولا للآلات المكبرة وجود[١٠]

ثانيا- تحريم لحم الخنزير

{حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير}[١] هذا التحريم اكتشف العلم الحديث سره، فقد تبين أن الخنزير يصاب في كثير من الأحيان بديدان تمر منه إلى من يأكل لحمه، وتتربى في جسده فتكون الدودة الوحيدة، الخطيرة التي تطول أحيانا أمتارا عديدة وتمنع التبرز لسدها المحل، وفي الخنزير ديدان أخرى تتربى في لحمه، وتتسرب إلى معدة آكله، فتؤدي به إلى أقبح الأمراض وأشنعها، قال بعض أطباء العرب: وهذا من الأمراض التي لم يتيسر للطب أن يجد لها علاجا ولن يتيسر للطب أن يجد لها علاجا، ولن تتيسر الوقاية منه إلا بالامتناع عن أكل لحم الخنزير. وأنه نظرا لهذه الأدواء الكامنة في الخنزير عافه كثير من الأطباء وتركوا أكله، بعد أن سبقهم القرآن إلى تحريمه منذ فجر الإسلام، ولا شك أن هذا كله معجزة أخرى من معجزات القرآن الباقية ١١

ثالثا، تحريم إتيان الحائض

المذكور في قوله تعالى: {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض}. فقد جعل القرآن الكريم المحيض أذى أي مستقذرا تنفر منه الطباع، ورتب على ذلك تحريم جماع الحائض وقد توصل الطب الحديث إلى سر ذلك كله، وبين أن الجماع في المحيض قد يحدث عقما في الذكر والأنثى، ويؤدي إلى التهاب أعضائهما الذي يفسد صحتهما، وكفى بذلك ضررا، ولذلك نجد أطباء العالم المتمدن الآن ينهون عن الجماع في ذلك الوقت كما نهى القرآن عنه، فإنه لا شك أذى للرجل والأنثى [١٢].

رابعا، تعدد الزوجات

{فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة } [١٣] هذا التشريع كثيرا ما نقمه على الإسلام خصومه وشنعوا عليه من أجله، ومن حسن الحظ أن نجد ضد هؤلاء

١٠مجلة المنار، مجلد ٢٩، جزء (٥).
١١دائرة المعارف الوجدية ج ٣ مادة خزر، مجلة هدى الإسلام، السنة الثانية العدد ٧١. مجلة مكارم الأخلاق التونسية، السنة الأولى العدد السابع، مجلة المنار، المجلد ٦ ج٨.
١٢سنن الكائنات ص ٥٧.
١٣ النساء الآية٣

الخصوم عددا من أهل أوربا يحبذون هذا النظام الإسلامي: "إباحة التعدد عند الحاجة ومع العدل" وينتقدون نظام الاقتصار على زوجة واحدة، وممن حبذ تعدد الزوجات، الفيلسوف الألماني الشهير شوينهور. وكذلك الأستاذ غوستاف لوبون الذي قال في هذا الصدد: **"إن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة وأنهضها بأدب الأمة التي تذهب إليه وتعتصم به"** وقال: **"ولست أدري على أي قاعدة يبني الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام ـنظام تعدد الزوجاتـ عن نظام التفرد المشوب بين الأوربيين بالكذب والنفاق"**.. [١٤]

وقد حدث ضابط في البحرية الأمريكية بعد ما عاد من لندن وباريس عام ١٩٢٧، بأنه وجد طوائف من أوربا رجالا ونساء وشخصيات حكومية جميعهم يؤمنون بفكرة تعدد الزوجات ويعملون لتقنين هذا التشريع، وقد ورد حديث هذا الضابط في جريدة الفتح [١٥] التي نشرته تحت عنوان (الغرب يصير شرقا والشرق يصير غربا، أوربا تطلب تعدد الزوجات والشرق يسعى لضد ذلك.

خامسا، الزنا :

{ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا} [١٦]، هذا الذي سماه الله سبحانه فاحشة...اكتشف العلم مضاره المتنوعة، ولذلك بادرت أكثر دول أوربا إلى إلغاء البغاء العلني بعد ما نجد الإسلام نادى– منذ ظهوره- بإلغاء البغاء ما ظهر منه وما بطن.

سادسا: الخمر

{ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان} [17] إن هذه الخمر نرى القرآن الكريم يسميها رجسا، كما يسميها الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله: أم الخبائث، ومن حسن حظ الإنسانية أن توصل كثير من أهل الغرب إلى إدراك خطورة هذه الرذيلة فعافوها، وألقوا جمعيات للنهي عن الخمور والسعي لإبطالها، وأقوى هذه الجمعيات نفوذا وتأثيرا في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن

14محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تأليف محمد رضا ص ٤٦٢-٤٦٣
15عدد ٤٩ الخميس ٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٥ -٩ يونيو سنة ١٩٢٧ السنة الأولى
16 سورة الغسراء الآية ٣٢
17 المائدة الآية٩٠

بعض الدول منعت الخمر على الجنود أثناء الحرب لما ثبت لديهم أن السكر يضعف الجنود عن القيام بأعباء الحرب واحتمال أثقالها [18]

سابعا: الأمر بتتريب الإناء من ولوغ الكلب

الذي جاء فيه حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتتريب)** –إلى حد العشرات الأولى من هذا القرن كان سر الأمر بالتتريب لا يزال مجهولا، ثم اكتشف بعد أن في لعاب الكلب ميكروبا لا يقضي عليه إلا استعمال التراب [19] وهذه أيضا معجزة جديدة من معجزات قوله تعالى {**سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**}.

ثامنا: سريان الأمراض المعدية

التي نبه عليها الرسول صلى الله عليه وءاله وسلم في حديث أبي هريرة عن البخاري **(وفر من المجذوم كما تفر من الأسد)** ونحوه من الأحاديث التي أيدتها الاكتشافات العصرية [٢٠]

تاسعا: الوقاية من الأمراض المعدية

ذكرها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أسامة ابن زيد عن البخاري قال **(إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها)** وهذا الحديث هو أساس المحاجر الصحية للأوبئة التي جرى العمل بها في هذا العصر الحديث.

رأينا في هذه القضايا التسع، كيف مشى العلم الحديث جنبا لجنب مع التشريع الإسلامي، وليست هذه القضايا سوى أمثلة قليلة بين عدد ضخم من الموضوعات التي أيد أو سيؤيد فيها العلم الحديث وجهة نظر

---

[19] سمعت هذا من بعض الباحثين الإثبات.

الإسلام. ويا ليت بعض المتضلعين من الثقافتين الحديثة والإسلامية يتناول هذا الموضوع فيسدي للتشريع الإسلامي يدا لن تنسى.

والآن لنقف بهذا الموضوع عند هذا الحد لنتحدث عن مظهر آخر لسمو التشريع الإسلامي، وذلك يتمثل في المكانة البارزة التي يعتليها بين القوانين المعاصرة، وسوف نجد لهذه المكانة أمثلة غير قليلة نفصلها فيما يلي:

إنه في عام ١٩٣١=١٣٥٠، انعقد في مدينة لاهاي مؤتمر القانون المقارن الذي تقرر فيه أن الشريعة الإسلامية أساسٌ صالحٌ كبير من أُسس القانون المقارن العالمي؛ ثم أعقبه مؤتمر آخر للقانون المقارن الذي انعقد في مدينة لاهاي أيضا ١٩٣٧=١٣٥٦ وقد مثل فيه الأزهر الشريف تمثيلا خاصا وتقرر بإجماع آراء الأعضاء –وكلهم من علماء القانون في بلاد العالم –أن الشريعة الإسلامية شريعة قائمة بذاتها ليست مأخوذة عن شريعة ما كالشريعة الرومانية.

وفي عام ١٩٤٥=١٣٦٤ قدم ممثل مصر في لجنة المشترعين بواشنطن اقتراحا اقترحته عدة وفود عربية وإسلامية، ويقضي بأن تمثل الشريعة الإسلامية –كنظام قانوني من النظم الأساسية في العالم- في محكمة العدل الدولية وقد سجلت اللجنة هذا الاقتراح وتم تنفيذه بالفعل.

وقد كان للشريعة الإسلامية نصيب وافر في المؤتمر الثاني للقانون الدولي الذي انعقد بالإسكندرية عام ١٩٤٦=١٣٦٥، فقد أوصى بأن تكون الشريعة الإسلامية موضع دراسة خاصة لإبراز ما حوته من كنوز في تنظيم العلاقات الدولية، وأنها تشمل من القواعد الاشتراعية ما لا يقل عن أحدث النظم الدولية الحديثة، وقرر المؤتمر أيضا تأليف لجنة لهذا الغرض حتى يكون في أحكام الشريعة ما يساعد على دعم السلام في العالم، وما ينشر الناحية الروحية التي تفتقر إليها الدول في العهد الأخير، وقد قامت هذه اللجنة بمهمتها [٢١]

وهذا وبعد أن عددتُ الأمثلة للمكانة الممتازة التي للشريعة الإسلامية بين القوانين المعاصرة، أنقل الكلام للحديث عن **أسرار بعض التشريعات التعبدية** أو بأصرح تعبير أتحدث عن الحكمة المراعاة في فرض الأركان التالية: الطهارة، الصلاة، الصوم –الحج- الزكاة.

21 "الدولة الإسلامية" تأليف عبد الله حسين ص ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١.

عاشرا : الوضوء – الغسل

لكل من الوضوء والغسل فوائده كثيرة، ومنها فيما يخص الوضوء:

١- إن غسل أعضاء الوضوء مرة أو مرات في اليوم كفيلة بإزالة ما أصاب هذه الأعضاء من ملامسة الأشياء، ومما يحمله الهواء من التراب، وتخرجه المسام من العرق، وتقذفه المنافذ من الأقذار.

٢- وأيضا في غسل هذه الأعضاء محافظة على الصحة بدفع عوامل الأمراض والوقاية منها، فقد ثبت طبيا أنها تدخل في الجسم مع المنافذ التي يعمها الوضوء، فإذا أزيل عنها ما عليها مما يمنع بروز العرق وتصاعد الأبخرة كان ذلك أحفظ للصحة وأدعى للسلامة [٢٢]

٣- ومن المظاهر الصحية في الوضوء أيضا استعمال السواك عند كل وضوء وكونه بعود أراك، هذه الفضيلة التي يحمدها الطب الحديث للإسلام [٢٣]

٤- وفي الوضوء فوائد أخرى: ففي تأكيد البدء بفسل الكفين ثلاث مرات فائدة طيبة جليلة، ذلك بأن الكفين اللتين تزاول بهما الأعمال يعلق بهما من الأوساخ الضارة وغير الضارة مالا يعلق بسواهما. فإذا لم يبدأ بغسلهما يتحلل ما يتعلق بهما فينقع في الماء الذي به يتمضمض المتوضئ، ويستنشق ويغسل وجهه وعينيه، فلا يأمن أن يصيبه من ذلك ضرر، مع كونه ينافي النظافة المطلوبة. ومن حكمة تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل جميع الأعضاء اختيار طعم الماء وريحه فقد يجد فيه تغيرا يقتضي ترك الوضوء به.

٥- ومن أسرار الطهارة بقسميها الوضوء والغسل، أن غسل البدن كله أو غسل أطرافه يفيد صاحبه نشاطا وهمة، ويزيل ما يعرض لجسده من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث أو بغير ذلك من الأعمال التي تنتهي بمثل تأثيره، سيما إذا كان الغسل مع الدَّلك الذي هو من أحسن الوسائل المستعملة في الطب لتقوية الأعصاب والعضلات وإزالة بض الآلام، قال بعض أطباء العرب: ولذلك يمدح بعض أطباء الإفرنج الإمام مالكا رضي الله تعالى عنه لجعله الدلك من فرائض الغسل، فإنه أكثر تقوية للجسم من الغسل وحده، وبهذا كله يكون المتطهر جديرا بأن يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى

٢٢"محمد المثل الكامل" ص ١٥٣
٢٣(سنن الكائنات) ص ٧٧-٧٨

حادي عشر- الصلاة:

شرح غير واحد من فلاسفة التشريع الإسلامي أسرار مشروعية هذا الركن العظيم في الإسلام وأفاضوا في ذلك، وهذه عبارات بعضهم:

قال الإمام ابن القيم في الهدي النبوي: **"وأما الصلاة فشأنها في تفريج القلب، وتقويته وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله وقربه والتنعم بذكره والابتهاج بمناجاته والوقوف بين يديه واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته وإعطاء كل عضو حظه منها واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاورتهم، وانجذاب قوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة –ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرجات، والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة، وأما القلوب العليلة فهي كالأبدان العليلة لا تناسبها الأغذية الفاضلة، فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومنورة للقلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة، ونافعة من كثير من أوجاع البطن"**.

وقال ابن القيم أيضا في محل آخر: **"ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن وإذابة أخلاطه وفضلاته –ما هو أنفع شيء له، سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان وسعادة الدنيا والآخرة. وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمتع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن هو استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة ثانية، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"**.

وقال الإمام السندي في حاشيته على سنن ابن ماجه ما خلاصته: **"الصلاة قد تبرئ من ألم الفؤاد والمعدة والأمعاء، وكذلك من (عدد من) الآلام، ولذلك ثلاث علل، الأولى إنها أمر إلاهي حيث كانت عبادة بمعنى أنها تدفع الأمراض بالبركة، والثانية أن النفس تلهو فيها عن الألم ويقل إحساسها فستظهر**

القوة، والثالثة –أمر ظني- وذلك أن الصلاة رياضة فاضلة للنفس لأنها تشتمل على انتصاب وركوع وسجود وتورك وغير ذلك من الأوضاع التي تتحرك معها أكثر المفاصل، وينغمر فيها الأعضاء سيما المعدة وسائر آلات التنفس والغذاء عند السجود، وما أنفع السجود الطويل لصاحب النزلة والزكام، وما أنفع السجود لانصباب النزلة إلى الحلق، وما أشد إعانة السجود الطويل على فتح سداد المنخرين في علة الزكام وإنضاج مادته، وما أقوى معونة السجود على هضم الطعام من المعدة والأمعاء، وتحريك الفضول المتخلفة فيها وإخراجها، إذ عنده تنحصر الآلات بازدحامها ويتساقط بعضها على بعض وكثيرا ما تشد الصلاة النفس، وتمحق الهم والحزن، وتذيب الآمال الخائبة وتكشف عن الأوهام الكاذبة، ويصفو فيها الذهن وتطفئ نار الغضب" [24]

وبانتهاء كلام الإمام السندي نكون قد استعرضنا طائفة من أنظار فلاسفة الإسلام في سر مشروعية هذه الركيزة الأولى في الإسلام.

وإذا كانت هذه الأنظار إنما تتناول مطلق الصلاة فلنقف عليها بذكر أسرار إيقاع الصلاة جماعة، التي نتناولها بالشرح فيما يلي:

١) إن في طليعة ما رعاه الشارع في الحث على الصلاة جماعة: الرغبة في اجتماع أهل البلدة أو الحي الواحد خمس مرات في اليوم على عدد الصلوات الخمس، لتتربى فيهم روح الاتحاد والمودة والتعاون، فلا يجدون محتاجا إلا أعانوه ولا مضطرا إلا قدموا له يد المساعدة ولا غائبا إلا بحثوا عن أسباب غيبته فإن كان مريضا عادوه أو مشرفا على خطر أنقذوه أو متقاعد الكسل عاتبوه؛ هذا في صلاة الجماعة اليومية، أما الجمعة فقد فرضت ليجتمع في هذه الصلاة الأسبوعية الذين لا تمكنهم أعمالهم من حضور صلاة الجماعة اليومية؛ وشرعت صلاتا العيدين الفطر والأضحى ليجتمع المسلمون في مكان واحد بمناسبة العيدين فيتبادلوا تحيات الود والإخاء.

٢) ومن أسرار الصلاة جماعة إشعار المصلي بروح المساواة التي هي أكبر أسس الإسلام، فيقف الغني بجانب الفقير، والشريف مع المشروف، والمخدوم قريبا من الخادم، والكل في موقف واحد بين يدي الله سبحانه لا فضل لأحد على أحد.

٢٤–"الرياضة في الإسلام" ص ٤٧-٥١

٣) وثالثا إن في اتباع المصلين لإمامهم في جميع أعمال الصلاة تعويد النفوس الطاعة والانقياد للرؤساء وقد فطن لهذا السر (رستم) قائد جيش الفرس، حين رأى الصحابة يصلون خلف إمامهم ويتحركون لحركته ويسكنون لسكونه [25].

وهذا لتكن خاتمة حديث أسرار الصلاة ذكر المكانة المرموقة التي تحتلها هذه الشعيرة في نفوس بعض علماء أوربا، جاء في مجلة المنار [٢٦]ما يلي "وقد نقل إلينا بعض علماء الإفرنج المستقلين الإعجاب بهذه الصلاة حتى خصوم الإسلام منهم، فقد قال الفيلسوف (رينان) الفرنسي، **"إنني ما رأيت المسلمين في مسجد يصلون جماعة إلا وتمنيت لو كنت مسلما أو قال احترقت نفسي لأنني غير مسلم"**،

ولما طعن في الإسلام في خطاب له في السربون ذكَّره الفيلسوف المنصف (غوستاف لوبون) بقوله هذا فاعترف.

وقد افتتح (الكونت هنوي دي كاستري) كتابه (الإسلام خواطر و سوانح) بمقدمة ذكر فيها ما رآه في سياحته في الشرق من صلاة المسلمين صلاة الجماعة، ووصف من إعجابه بها وتأثيرها في نفسه أنه احتقر نفسه اتجاه جماعة من الفرسان المسلمين رآهم يصلون جماعة.

ثاني عشر : الصوم

فرض الصوم لتطهير النفوس وتزكيتها، وليحس الصائم بآلام الجوع والعطش فيتذكر الجائعين من الفقراء والمساكين، ويتعطف عليهم، ويواسيهم، وقد شرح القرآن الكريم والحديث الشريف هذه الحكم: {**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**} [٢٧] وفي حديث البخاري (الصوم جنة) أي وقاية من عذاب الدنيا بالأمراض والمعاصي ومن عذاب الآخرة؛ وفي صحيح البخاري أيضا :**(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة).**

---

٢٥ ـ محمد المثل الكامل، ١٥٦-١٥٧وغيره

٢٦-مجلد ٢٩ ج٦.

٢٧البقرة الآية ١٨٣

ولِما في الصوم من معنى الإحسان أوجب الشارع زكاة الفطر عقب انتهاء رمضان تنبيها على هذا المقصد الأسمى من مقاصد الصوم.

هذا وإلى جانب حكم الصوم الآنفة الذكر نجده ينطوي على فوائد صحية عديدة أصبحت موضوع عناية أطباء الغرب في هذا القرن العشرين إلى حد أن أحد دكاترتهم خص هذا الموضوع بكتاب على حدة عنوانه (التداوي بالصيام وأصول الاستعانة به) وقد طبع في ألمانيا عام ١٣٥٤=١٩٣٦ في (١٩٤ صفحة) [٢٨]

وبين كمية وافرة من اعترافات الأطباء المعاصرين بفوائد الصيام نسوق هنا شهادة دكتور عربي: محمد توفيق صدقي الذي قال في كتابه الجليل (سنن الكائنات) [٢٩] ما يلي:

"إن الصوم عن الطعام نافع في أمراض المعدة والأمعاء والكبد والكلى وحصواتهما، والنقرس والروماتيزم والحميات وأمراض القلب وغير ذلك، إلا أن الغلو فيه له ضرره، ولذلك نص الشارع صلى الله عليه وسلم على وجوب الاعتدال في كل شيء، ونهى عن صوم الدهر، وعن الوصال في الصيام واستحب السحور وتأخيره وتعجيل الفطر. قال صلى الله عليه وسلم لمن نهاه عن كثرة الصيام والقيام (إن لبدنك عليك حقا)، ومما يخفف ضرر الصوم عند المسلمين أنه يباح لهم ليلا ما يحرم عليهم نهارا فذلك كان الضرر الناشئ من الضعف في أثناء النهار قليلا أو معدوما، وبجانبه نفع يفوق هذا الضرر كثيرا هو راحة الجهاز الهضمي والكبد والجهاز البولي وإحراق ما في الجسم من الزيادة الضارة وغير ذلك مما ذكرناه."

هذا كلام الدكتور محمد توفيق صدقي، وينبغي أن نتبعه بذكر حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموضوع وهو قوله: **(صوموا تصحوا)** نسب إخراجه في الجامع الصغير إلى ابن السني وأبي نعيم في الطب النبوي، ولئن كان إسناد هذا الحديث ضعيفا فإن معناه –كما رأينا- صحيح، ولكن على أساس أن يتعاطى الصائم عند فطوره وسحوره اللائق، أما من يتجاوز الحد في ذلك فلا تحصل له الصحة ، هكذا قيد الحديث بعض شراحه [30] موافقا على ذلك ما ينادي به الطب الحديث.

---

٢٨ – مجلة هدى الإسلام، السنة الثانية العدد ٦١.
٢٩– ص١١٩-١٢٠.
٣٠– هو الحنفي المطبوع تعليقه بهامش شرح العزيزي على الجامع الصغير ج٢ ص٣٦٥.

ثالث عشر-الحج:

إذا كانت صلاة الجماعة على اختلاف صورها شرعت ليجتمع المسلمون يوميا وأسبوعيا وبمناسبة العيدين الإسلاميين، وإذا كانت هذه الاجتماعات كلها محدودة لا تتعدى في الأكثر البلدة الواحدة، فإن الحج شرع ليجتمع –في البقاع المقدسة- المسلمون من أقصى الرقعة الإسلامية إلى أقصاها، حيث يتعارفون بينهم، ويطلعون على ما وصل إليه العالم الإسلامي من تقدم أو ضده، ويتبادلون العلوم والمعارف، ويتداولون مشاكل الإسلام والمسلمين، ثم بعد ذلك يرجع كل حاج إلى موطنه وقد أخذ نظرة على الإسلام، وبهذا كان الحج مؤتمرا إسلاميا عاما.

وفي الحج –أيضا- زيارة البيت العتيق، والسلام على المقام النبوي الكريم، ومشاهدة البقاع المقدسة الأخرى، وكل هذه المشاهد تثير في نفس المسلم ذكريات عديدة: ذكرى إشراق الإسلام من تلك الأراضي المكرمة، وذكرى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه بها، وذكرى ما جرى هناك لإبراهيم الخليل –عليه السلام لما أمر بذبح ابنه، وذكرى ما جرى لآدم وحواء بعد ما هبطا من الجنة.

وفي الحج يتجرد الحجاج من ملابسهم العادية ويستعيضون عنها بلباس الإحرام الذي يوحد زي سائر الحجاج، وفي هذا تذكير بالمساواة التي جاء بها الإسلام، وتذكير أيضا بيوم الحشر الأكبر حيث يتجرد الناس عن سائر مظاهر الزينة، وفوق هذا ففي لباس الإحرام فائدة صحية جليلة: فإن الطب اكتشف أخيرا أن الإنسان لابد له من تعريض جسمه إلى الهواء الطلق نحو شهر من كل سنة، يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه [٣١]

٣١-تحدث عن هذه الفائدة الصحية محمد لبيب البتنوني في (الرحلة الحجازية) ص ١٨٣

رابع عشر : الزكاة

الزكاة أكبر مظهر من مظاهر البر والإحسان، فهي منحة الإسلام للفقراء والمحتاجين، ومعاهدة سلام بين الفقراء والأغنياء، ومن أبرز أسرارها أنها تساهم مساهمة فعالة في حل أزمة الفقر؛ فتفرض نسبة مئوية في مال كل غني ليساهم بها في حل تلك الأزمة.

وهي أيضا مدعاة لترويج أموال الأغنياء وعدم تجميدها: وذلك لأن الغنى إذا رأى الزكاة تقتطع من ماله المتجمد نسبة مهمة على رأس كل سنة، فهو يبادر إلى ترويج رأس ماله وتنميته ليلا تنتقصه الزكاة، ويشير لهذه الحكمة الحديث الشريف **(اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة)** أخرجه الطبراني في الأوسط عن أنس.

وفوق هذه الناحية المادية فهناك أسرار روحية لهذه الفرصة: فهي تروض الأغنياء على السخاء، وتربيهم على البذل في سبيل الله، حتى تزول منهم صفة البخل المذمومة {**ومن يوق شح نفسه فأولائك هم المفلحون**} [٣٢] والزكاة تطهير للمال مما عسى أن يكون تسرب إليه –غفلة- من مداخيل غير طيبة {**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**} [٣٣].

دعوة الحق، ع٨، السنة الثانية ماي ١٩٥٩.

---

٣٢ الحشر الآية ٩
33 التوبة الآية ١٠٣

[1]